الجغرافيا فى رسائل إخوان الصفا (*)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

سنعرض فى هذه الورقة لطبيعة الجماعة المسماة بإخوان الصفا ، ولما تضمنته رسائلهم من معارف جغرافية ، ولما اتسم به إنتاجهم فى هذا المجال من سمات .

- ١ -

فأما الإخوان فهم جماعة فكرية ، غير معلنة التكوين أو الأهداف ، قامت بالبصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وكان لها فرع فى بغداد ، توفق بين العقل والنقل وتمزج الدين بالفلسفة ، أو هى تحاول وضع فلسفة ذات صيغة دينية ، فى إطار من المعارف المتنوعة التى زخرت بها البيئة الثقافية حينذاك.

ونظرا للطابع السرى الغامض الذى أضفوه على أنفسهم ومذهبهم فقد حار الباحثون فى تحديد هويتهم الفكرية وأهدافهم الحقيقية التى يمكن أن تستخلص من رسائلهم :

(أ) فمن قائل إن هدفهم إنما هو تثقيف الأمة وتهذيبها بعد أن عجزت الشريعة فى نظرهم عن أداء المهمة .. وليست لهم أية غاية أخرى»[١] .

(ب) ومن قائل « إنهم جماعة تحلوا بالزهد فى الدنيا والمحبة والأمانة والصدق والوفاء » منكرا أن تكون لهم أهداف سياسية ترمى إلى قلب السلطة أو المساس بالدين[٢] .

(جـ) ومن قائل : إنهم كانوا «يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الإسلامى يومئذ ، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين»[٣] .

(د) وربما آثر بعض الباحثين أن ينسب إليهم كل الأوصاف المحتملة فيقول: « إن إخوان الصفا علويون ، وباطنيون ، وإسماعيليون ، ومعتزلة ، وفيثاغوريون ، وأفلوطينيون ، ومجوس»[٤] .

(*) بحث ألقى فى المؤتمر السنوى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٩٥م .

(هـ) وكان جولد تسيهر قد أشار إلى علاقتهم بالإسماعيلية ، واشتد فى الحكم على هؤلاء إذ قال : « بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية ، تلك التى بنت عليها جماعة إخوان الصفا البصرية فلسفتها الدينية . . واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدها تطرفا »[٥] وكان قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن الإسماعيلية استخدمت النظريات الأفلاطونية « لكى تنفذ إلى صميم الديانة الإسلامية ، وتعمل على تعديل أحكامها وعقائدها ، وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعا ستروا وراءه برامجهم الهدامة ، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير » [٥] .

(هـ) ويبدو أن هذه الإشارة – التى أكدها ديبور أيضا [٦] قد وجهت البحوث الغربية وجهة مثمرة ، حتى إن كراتشكوفسكى يقول بعد بضعة عقود : « وضح فى الأعوام العشرة الأخيرة ، بما لا يدع مجالا للشك ، أنها (أى جماعة إخوان الصفا) قريبة من دوائر الإسماعيلية وتنتصر لمذهبهم»[٧] .

وإذا كان علىّ أن أضيف شيئا – بحكم تخصصى – فإنى أؤكد أن إخوان الصفا ليسوا إلا مجموعة من دعاة الإسماعيلية «المكاسرين» الذين يمهدون البيئة العقلية لمبادئ المذهب ، وأن من يقرأ الرسائل وبخاصة «الرسالة الجامعة» سيجد أسس العقيدة الإسماعيلية وتفاصيلها فى غاية من الوضوح [٨] . على نحو لا يدع مجالا للشك كما قرر المستشرق كراتشكوفسكى .

وتلك حقيقة لا ينكرها الكتاب الإسماعيليون أنفسهم فى الوقت الحاضر[٩].

وأيا ما كان الاتجاه الفكرى لإخوان الصفا فإن رسائلهم تعد موسوعة شاملة لمعارف عصرهم ، مصوغة فى أسلوب سهل ميسر ، يناسب عامة المثقفين حينذاك ، قدمت فيه المعارف الدينية الإسلامية فى صياغة باطنية تأويلية ، ممزوجة بالفلسفة اليونانية مع إيثار لاتجاهات الفيثاغورية والأفلاطونية المحدثة ، وهذا ما يؤكده جولد تسيهر قائلا : « قد أفلحت الحكمة اليونانية فى أن تستوطن الشرق وذلك عن طريق إخوان الصفا ،

على حين كـــادت فلســـفـة المـدرســـة الأرسطاليـسـيـة لا تثـمـر إلا فى جو صناعى هيأه لهـا الأمراء »[١٠].

وهذه الموسـوعـة ، التى يعـتـبـرها أحـد البـاحـثين [١١] « المـوســـــوعـــة الفكـرية الأولـى فـى تاريخ البـشـرية » ، تتكـون مـن اثنتين وخـمـسين رسـالة ، وتنقـسم إلى أربعـة أقـســـام : القـسم الأول للعلوم الرياضـيـة والمنطقـيـة - كـأنه تمهيد منهجى للفلسفة على الطريقـة الفيـثـاغـورية الأفـلاطونيـة - فى أربع عشرة رسالة .

والثانى للفلسفة الطبيعية فى سبع عشرة رسـالة . والثالث للميتافـيزيقا وعلم النفس فى عـشـر رسـائل . والأخـيـر للتـصـوف والتنجـيم والسحر فى إحدى عشرة رسالة .

وتتسم الرسائل بسمات عـامة ، لا ينبغى أن تغـيب عـن ذهن القـارئ لهـا حـتى يقـدرها تقديرا موضوعيا . من هذه السمات :

١ - أنهـا عـمل مـوسوعى يلخص علوم العصر ومعارفه بضرب من التبسيط ، وليس كتابها من العلمـاء الأفذاذ كالرازى أو الجاحظ، ولا الفلاسفة المبدعين كالكندى أو الفارابى .

٢ - أن كتابها بحكم تأثرهم بالأفلاطونية المحدثة وميولهم المذهبية الإسماعيلية يؤمنون بتأثير الأجرام السماوية العلوية على الظواهر الطبيعية والأوضاع الإنسانية ، كما ألمح إلى ذلك ديبور .

٣ - أن الميول الإسماعيلية لكتابها لم تحل دون العـرض الموضـوعى فى كـثـيـر من الأحـيـان ، وبخاصة عندما لا يسمح الموضـوع بتـضـمـينات أو إيحـاءات مـذهبـيـة ، وهناك مؤلفون معاصرون من الإسماعيلية يكتبون بموضوعية وروح علمية كأبى حاتم الرازى فى كتابيه «الزينة - وأعلام البنوة» كما نبه إلى ذلك أســتـاذنا الدكـتـور إبراهيم بيـومى مدكور[١٢] .

٤ - أنهـــا لم تبـــرأ - بحكم الطابع الغنوصى - لها من نزعة تلفيقية - كما ذكره ديبور أيضا بمحاولتها الجمع المتعسف بين عقائد الأديان المختلفة ومذاهب الفلسفة المتباينة على نحـو لا يرضى دينا ولا فلسـفـة ، حـتى اضطر بطرس البستانى فى مقدمته للرسائل أن يقرر بأن « كلامهم على يسوع أنه عن ميمنة عرش الرب قد قـرب مثـواه كـمـا يقـرب ابن الأب ، ينطبق على العقيدة المسيحية لا على العقيدة الإسلامية[١٢] » وأنه « مـــدعـــاة للشك فى إسلامهم»[١٣] .

٥ - أن كتابها مالوا إلى أسلوب رمزى للتخفيف من وقع انتقاداتهم لمذاهب أهل السنة وللمظالم السائدة فى عصرهم وقلدوا فى ذلك أسلوب كليلة ودمنة ، على نحو يشهد لهم بالبراعة ويدعو دارسى الأدب العربى إلى تناول هذه الناحية المبثوثة فى رسائلهم بالدراسة الجادة .

٦ - أن كتاب الرسائل وإن حاولوا إبداء موقف معتدل بين الفلسفة والدين ، بل اشترطوا تعليم الدين فيمن يشتغل بها : « .. فأما من قد تعلم علم الشريعة ، وعرف أحكام الدين ، وتحقق أمر الناموس ، فإن نظره فى علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيده فى علم الدين تحققاً ، وفى أمر المعاد استبصارا »(١٤) إنهم وإن حاولوا ذلك ، قد كانوا فى كثير من الأحيان يعدلون إلى جانب الفلسفة والتأويلات المذهبية المتطرفة ، مما يجعل حكم أبى حيان عليهم فى هذا الشأن حكمًا غير جائز : «إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . »(١٥)

ولعلنا الآن نستطيع أن نتناول الجانب الجغرافى من الرسائل بالتلخيص ، ثم بالتعليق والتقويم بإذن الله .

- ٢ -

أفرد إخوان الصفا للجغرافيا رسالة خاصة من رسائلهم هى «الرسالة الرابعة» من القسم الأول الخاص بالعلوم الرياضية والمنطقية ، متوسطة بين الرسالة المختصة بالفلك والرسالة المختصة بالموسيقى . وهذا فى حد ذاته قد يوحى بالطابع العام لفكرهم الجغرافى ، وأنه من جهة يربط بين الأرض والسماء ، والجغرافيا والفلك والعلم والدين كما يهتم بالأعداد وأسرارها والحروف وخصائصها ، أى أنهم معنيون بالجغرافيا الفلكية الرياضية(١٦) ، ويعتبرون ذلك - مع المنطق - تمهيداً للدراسة الفلسفية : وفى الطبيعة والميتافيزيقا . وناحية شكلية أخرى وهى إيثارهم تسمية العلم - لأول مرة فى التراث الجغرافى العربى(١٧) - باسمه القديم معرّبًا «جغرافيا» مع تفسيره بالعربية « يعنى صورة الأرض والأقاليم »(١٨) ، وكان من قبلهم يؤثر ترجمته بصورة الأرض أو تقويم البلدان أو غير ذلك ،

وهذه سمة غالبة على طريقتهم مع أكثر المصطلحات المنطقية وبعض المصطلحات الأخرى ، مما قد يوحى برغبتهم فى الإشارة إلى المصدر اليونانى لهذه المعارف ، وتلك ناحية قد نعود إليها فيما بعد .

على أن الرسالة الرابعة المكرسة للجغرافيا ليست هى وحدها المتعلقة بالبحث الجغرافى ، فإن رسائل أخرى فى هذا القسم الأول ، وفى الأقسام الثلاثة الأخرى تحتوى مباحث جغرافية لا يخطئها قارىء الرسائل وقد لا تقل قيمة عما تتضمنه رسالة الجغرافيا من الناحية العلمية .

وسنعرض بإيجاز مضمون (الرسالة الرابعة) ثم نشير فى سرعة إلى بعض المواضع فى الرسائل الأخرى فيما يلى :

(أ) تبدأ الرسالة بالتنبيه إلى أن هدف البحث هو معرفة الوقائع بعللها صعودا إلى العلة الأولى ، مما يتسق مع منهج «الإخوان» فى ربط العلم بالدين . يلى ذلك بيان أن الأرض هى مركز العالم طبقا للمعارف السائدة زمن التأليف ، وتعليل البحث فى أحوال الأرض بأنها منشؤنا وإليها معادنا ، وأنها منطلقنا إلى عالم البقاء ، ثم إشارة إلى أهم محتويات الرسالة وهى الأقاليم السبعة ، لتعود إلى هدف البحث وأنه الاعتبار : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ..! ﴾[١٩] .

بعد هذه المقدمة يتناول الفصل الأول (صفة الأقاليم وما فى الربع المسكون من الأرض) فيحدد موقع الأرض ، والجهات الست ، وحجم الأرض وطول قطرها ، ومركزها حسب علم الهيئة لا فى التوهم العامى ، ويذكر توالى الأفلاك صعودا من مركز الأرض ، وحدبة الأرض أو تكورها[٢٠] .

تلى ذلك فقرة خاصة بذكر (وقوف الأرض فى وسط الهواء) وفيها تعليل لثباتها فى موقعها بالجذب : جذب القلب لها من جميع جهاتها بالسوية ، أو جذب المركز لجميع أجزائها حسب ثقله من جميع الجهات إلى الوسط أو بالدفع ، وتساوى قوة الدفع من جميع الجهات . وبعد هذا التفسير العلمى يأتى تفسير دينى هو أن الإرادة الإلهية خصت كل جسم حسب عنصره بموقع خاص ، وكل كوكب من الكواكب بموضوع مخصص ، وهو - كما تقول الرسالة .. «أشبه الأقاويل بالحق»[٢١] ربما لأنه يؤكد فكرة المراتب والاصطفاء الإلهى مما يزكى موقف القوم من الإمامة .

وفقرة أخرى فى الفصل نفسه عن (طبقة الأرض وقسمة أرباعها) تُصورها فيه كرة نصفها غاطس فى الماء والنصف الآخر بارز ، وهو ينقسم قسمين أو ربعين بخط الاستواء :

الجنوبىُّ منهما غيرُ مسكون والشمالى هو الربع المسكون من الأرض ، وفيه بحار سبعة فى كلٍّ عدة جزر ، ويحدد مواقع هذه الأبحر ، بعد أن يقدم رسما بسيطا يوضح أقسام الأرض(٢٢) .

يليه بيان للجبال فى هذه المنطقة المأهولة . ويختم الفصل ببيان صفة الأقاليم السبعة وأبعادها موضحة بالشكل الذى يسميه مثالا(٢٣) .

ويبدأ الفصل الثانى - كأكثر الفصول - بمناداة القارىء « بالأخ البار الرحيم » والدعاء له ، وهو أسلوب فى التودد إلى القارىء لا بأس به لولا بعض سرف فيه ، ثم تنبيهه إلى أن حدود الأقاليم السبعة ، التى وردت فى ختام الفصل السابق ، إنما هى حدود وهمية - وليست أقساما طبيعية - وضعها المستكشفون لحدود تلك البلاد ، ومسالكها - وهنا ترد أسماء بعض ملوك الأمم ولامشاحة فى أن للعوامل السياسية أثرا فى الاكتشافات وتقدم المعارف الجغرافية ، ثم يذكر لاقتصارهم على الربع المأهول أسباباً طبيعية قد لا تكون دقيقة ولكنها تلمح إلى أثر العوامل الجغرافية فى التوزيع السكانى على الكرة الأرضية ، منبها إلى أنها على اتساعها ليست إلا كالنقطة فى دائرة الأفلاك الواسعة ، وإن كانت - كما مر بنا آنفا - هى النقطة المركزية ؛ « وذلك أن فى الفلك ألفا وتسعة وعشرين كوكبا ، أصغر كوكب منها مثل الأرض ثمانى عشرة مرة ، وأكبرُها مائة وسبع مرات.. »(٢٤) ، وتلك أرقام وحجوم غير صحيحة الآن ، ولعلها غير دقيقة بمقياس ذلك الزمان ، ولكنها تدعو القارىء - كما ينصحه الإخوان - إلى التفكير فى عظمة الخالق القائل : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ صدق الله العظيم .

أما الفصل الثالث - وهو أطول الفصول ، بل يقرب من نصف حجم الرسالة فإنه يبدأ ، كما انتهى سابقه ، بموعظة للقارىء ألا تشغله مطالب العيش والشهوات والطموحات الدنيوية الزائفة عن « طلب العلم ومعرفة حقائق الأشياء . حتى إذا فنى العمر خرج من هذه الدار جاهلاً ، لم يعرف صورتها ، ولم يفكر فى الآيات التى فى آفاقها ، ولا اعتبر أحوال موجوداتها .. » (٢٥) ، فيكون كواحد من السائحين دخلوا مدينة ملك حكيم عادل أقام لهم الموائد ، ودعاهم إلى لقائه تكريما وحفاوة وإلى السياحة فى المدينة طلبا للحكمة والمعرفة ، فشغلتهم الموائد عن الاعتبار

بما فى مدينة الملك من الآيات والغرائب ، التى كان من الممكن أن يصيروا برؤيتها «حكماء أخياراً فضلاء»[٢٦] فيصلون إلى حضرته ، ويستحقون كرامته ، لكنهم خرجوا من مدينته لم ينالوا منها إلا الطعام والشراب .. وهذا لعمرى سمو أى سمو بقيمة المعارف الجغرافية وأثرها التربوى والروحى ، ولكن لا ينبغى أن ننسى أن هذه الصفات «حكماء أخياراً فضلاء» هى مراتب فى الدعوة حسب السن والخبرة عند إخوان الصفا[٢٧] ، وإذن فهذه دعوة مذهبية ، بل تنظيمية ، مغلفة بالموعظة الروحية ، وقد يشى بذلك دعاؤهم للقارىء : «وفقك الله أيها الأخ البار الرحيم [هذان هما وصفا من يصلح للدعوة][٢٨] للسداد ، وهداك للرشاد ، وجميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد .. »[٢٩] .

وبعد هذه المقدمة الدعوية يحدد الإخوان موضوع الفصل الثالث «نريد أن نذكر الأقاليم السبعة ونبين حدودها طولا وعرضا وما فى كل إقليم من المدن الكبار والجبال والأنهار الطوال»[٣٠] ، ثم يذكرون أن أساس تقسيم هذه النطاقات الهندسية شمالى خط الاستواء المسماة بالأقاليم السبعة إنما هو التفاوت فى طول وقت النهار مشيرين إلى أن ذلك مأخوذ من كتاب «المجسطى»[٣١] وهو تصريح بمصدرهم الأساسى وهو المدرسة اليونانية - الإسكندرية .

ثم يبينون أن ما سيوردونه بعد فى هذا الفصل من قوائم المدن والمواضع سيذكر فيه درجة العرض ، والمقصود بها بعد المكان عن خط الاستواء ، ودرجة الطول والمقصود بعده عن أقصى المغرب ، وأن المسافة من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق هى مائة وثمانون درجة كل درجة تسعة عشر فرسخا ، ثم يذكرون على هذا الأساس كيفية تحديد المواقع على وجه الإجمال .

ترد بعد ذلك أسماء المدن الكبار ، بدءا بما ليس منها فى الأقاليم السبعة لقربه من خط الاستواء مقرونة كل منها بدرجة طولها معبراً عنها بحساب الجمل : وهى «بشمير من الهند [كذا بالباء] ، جزيرة كوك من الهند ، مدينة الطيب من الهند ، وحضرموت من اليمن ، رعاه من الحبشة ، كوكو من الحبشة[٣٢] وربما كان تحديد مواقع هذه المواضع من خط الاستواء كما نعرفه الآن تعوزه الدقة ، غير أن ما يلفت النظر أن هذه الأعلام الجغرافية وأمثالها - مع الأخذ فى الاعتبار آثار التحريف والتصحيف فى المخطوطات والمطبوعات غير المحققة - جديرة بدراسة متخصصة .

ثم يتعرضون للإقليم الأول ، ناسبين إياه إلى زحل ، محددين طوله وعرضه بالأميال والفراسخ ، وتفاوت طول النهار فيه ، فيذكرون أن «فى هذا الإقليم من الجبال الطوال نحو عشرين .. وفيه من المدن المعروفة نحو من خمسين ، وابتداء هذا الإقليم من المشرق على شمال جزيرة الياقوت ، فيمر على بلاد الصين مما يلى الجنوب ، ثم على شمال بلد سرنديب ، ثم على وسط بلاد الهند ، ثم يمر على وسط بلاد السند ، ثم يقطع بحر فارس مما يلى الجنوب بلاد عمان [كذا] ، ثم يمر على وسط بلاد الشحر ، ثم يمر على وسط بلاد اليمن ، ثم يقطع بحر القلزم هناك ، ويمر على وسط بلاد الحبشة ، ويقطع نيل مصر هناك ، ثم يمر على بلاد النوبة ، ثم يمر على وسط بلاد البربر وبلاد البواى ، ثم يمر على جنوب بلاد مرطانة ، وينتهى إلى بحر المغرب - بحر الظلمات - وعامة أهل هذه البلاد سود »[٣٣] ثم يوردون بعد ذلك أسماء المدن الكبار فى هذا الإقليم مقرونة بدرجات الطول والعرض على النحو المشار إليه آنفا : « مدينة فى أقصى الصين ، مدينة فى جزيرة الصين ، أسقريار وهى من الصين ، ماسيوفا من الهند ، حارون من الهند ، سقلى من السند ، عُمان من بلاد العرب [على العين نقطة فى طبعة صادر] ، الميد من السند ، مدينة أخرى على البحر مَيْلا عدن من اليمن ، دنقلة من بلاد نوبة ، كوضُ وواعلة منه [كذا] ، مملكة الحبشة ، حرمى الكبرى»[٣٤] وإنما أطلت النقل هنا ليكون نموذجا لما يوردونه عن الأقاليم الستة التالية من المواضع ، فهو مماثل لذلك حتى نهاية الفصل ، اللهم إلا فى اختلاف أسماء الأماكن ودرجاتها ، ولعل فيما أوردناه كفاية لأن يجذب نظر عالم متخصص فيجعل هذه النصوص من الرسائل موضع دراسة تفصيلية .

ويذكر الفصل التالى - وهو الرابع - اختلاف خواص الأقاليم السبعة ؛ من حيث السكان وأحوالهم ، والحيوان ، والمعادن ، والمناخ ، والتربة ، وموارد المياه ، على وجه الإجمال وينسبه إلى اختلاف طوالع البروج ودرجاتها على آفاق تلك البلاد ، مع الاعتراف بأن ذلك مما يطول شرحه[٣٥] وبعد الإشارة إلى العوامل الطبيعية السابقة المؤثرة فى تمدن الربع المسكون من الأرض الذى قيل إنه يحوى ١٧,٠٠٠ مدينة سوى القرى [٣٦]، يذكرون - جريا على معتقداتهم ، وما شاع فى عصرهم ثم أحكام القرانات وما يترتب

عليـها من قـوة السـعـود ، وأدوار الأفـلاك الألوف - وهذه إسـماعـيليـة - ومـا ينشـأ عن ذلـك كلـه مـن « اعـتـدال الـزمـان واسـتـواء طبـيـعـة الأركـان ، ومـجـيء الأنبـيـاء ، وتواتر الـوحى [كـذا] ، وكـثـرة العلمـاء ، وعـدل الملوك .. »[٣٧] ثم يذكرون النحوس وما يترتب عليها من تغيرات طبيعية ونفسية وثقافية سيئة ، وهكذا يدور الزمان بالبشر قرنا بعد قرن ، ومن أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد .

ويتصل الخطاب فى الفصل التالى - وهو الخامس ، ويليه فصل الختام - بين الإخوان وقارئهم حول تطور الدول وأن لكل دولة عمرا يبدأ بالنشأة ، ويبلغ النضوج ، ثم ينتهى إلى الانحطاط والنقصان ، لتنشأ دولة أخرى وتعلو ، وتتراجع الأخرى ، مما يذكرنا نحن بنظرية ابن خلدون فيما بعد ، وإن كانت طبيعة التفسير لهذه الظواهر التاريخية مختلفة ، أما أصحابنا هؤلاء فيفسرونه بأثر الكواكب واختلاف الظروف الطبيعية وما يترتب عليها فى أوضاع البشر ﴿ وتلك الأيام ندوالها بين الناس ﴾ .

ثم يأتى فصل الختام مبشرا القراء بقرب سقوط دولة الشر ، حيث بلغت أوجها ومالت إلى الشيخوخة والضعف ، مما يصلح وصفا لأوضاع الدولة العباسية حين ظهور الرسائل ، وبدء اختلالها وضعفها ولكن البديل وهو دولة الخير لن تقوم إلا إذا سبقتها دعوة جامعة «من قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء ، يجتمعون على رأى واحد ، .. ودين واحد ، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا .. ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، .. فهل لك أيها الأخ البار الحكيم بأن ترغب فى صحبة إخوان لك نصحاء ، وأصدقاء لك أخيار فضلاء .. بأن تقصد مقصدهم ، وتتخلق بأخلاقهم ، وتنظر فى علومهم ، لتعرف مناهجهم ، وتكون معهم .. »[٣٨] .

وهكذا تنتهى رسالة «الجغرافيا» بدعوة واضحة إلى تغيير سياسى بناء على ثورة ثقافية أو مذهبية ، هى شيعية إسماعيلية فى حقيقتها ، لتغيير الأوضاع السائدة فى العالم الإسلامى ، وفى وقت كانت دولتهم قد ظهرت فى المغرب وأخذت طريقها إلى قلب العالم الإسلامى عن طريق مصر . مما يؤكد مقالة ديبور وغيره «إن الفلسفة قد انقلبت على يد إخوان الصفا إلى أحلام سياسة»[٣٩] .

(ب) إذا كان الغرض السابق لمحتوى الرسالة المتخصص كافيا لإلقاء الضوء على طبيعة المعارف

الجغرافية فى رسائل إخوان الصفا ، فربما جاز لنا أن نشير إشارات سريعة إلى مواطن أخرى من الرسائل ذات أهمية خاصة فى هذا الصدد ، ولئن كانت رسالة الجغرافيا تهتم بالجوانب الطبيعية فإن النماذج التالية تبين اهتمام القوم بالجوانب الأخرى من الفكر الجغرافى :

١ - فمن ذلك ما تحتويه رسالة «الأسطرونوميا فى علم النجوم» من اهتمام بتركيب الأفلاك ، وعلاقات الكواكب ، وحركة البروج .. وسائر مسائل علم الهيئة ، التى يستدل بها - فى علم الأحكام - على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر[٤٠]، ولا ينكر تأثيرها على الأحوال الجغرافية وآثارها فى الكائنات أثناء حدوثها كما مر بنا فى رسالة الجغرافيا . وكثير ما تضمه الرسالة الفلكية يدخل فيما يعرف بالتراث الجغرافى بالجغرافيا الفلكية ، وهذه ناحية كان الإخوان - بحكم اتجاههم المذهبى - معنيين بها إلى حد كبير ، كحركة الكواكب وآثار كل من زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والقمر على أحوال الأرض ، وسائر الكائنات والفاسدات تحت فلك القمر[٤١].

٢ - ومن المواضع الهامة أيضا ما تتضمنه الرسالة الرابعة من المجلد الثانى الخاص بالقسم الطبيعى ، وهى تتناول الآثار العلوية أو الظواهر الجوية ، فتدرس آثار حركة الكواكب على الجو بوجه عام[٤٢] وتكون الأبخرة والسحب والبروق والرعود وقوس قزح[٤٣]، ثم يتناول ظواهر الأمطار ، والشهب، والمذنبات ، مما يدخل فى ميدان الجغرافيا الطبيعية[٤٤] ، مع تعرض فى أثناء ذلك لبعض الآيات القرآنية وتأويلها على نحو خاص مما يتعلق بالرجوم والشهب[٤٥] ، وهى لا تخلو من مغزى علمى ومذهبى .

٣ - وربما كانت الرسالة الخامسة من المجلد الثانى - الطبيعيات - الخاصة بتكوين المعادن ذات أهمية فيما نحن بصدده ، غير أن الرسالة الثامنة من نفس المجلد هى أكثر أهمية فهى تتناول مسائل تدخل فى الجغرافيا الحيوية من أحوال النبات والحيوان[٤٦] ، واختلاف حيوان كل جهة عن حيوان الأخرى بسبب البيئة وغيرها[٤٧] ، وتصنيف الحيوانات على أساس مرتبتها من التطور ونوع حركتها ومناطق وجودها[٤٨] ، وكذا الطيور وأحوالها المختلفة التى حظيت بعناية ملحوظة[٤٩] أيضا ، إلى آخر ما تتضمنه الرسالة من أدب جغرافى ذى أهمية موضوعية وتاريخية فى وقت معا .

- ٣ -

لعلنا بعد العرض السابق لمعالم ما تحويه « الرسائل» من أدب جغرافى ، نستطيع أن نستخلص سمات عامة لهذا الأدب ، وأن ندلى بكلمة تقويمية حوله ، مع التحفظ الواجب على قارئ غير متخصص مثلى لهذه الموسوعة المعرفية ، حتى ولو استهدى بآراء المتخصصين :

١ - لا ينكر أحد من الباحثين - فى مدى علمى - الأهمية البالغة لإخوان الصفا كظاهرة ثقافية ، وللرسائل التى كتبوها كأثر علمى متميز ، وذلك على مستوى تاريخ الأفكار العلمية والفلسفية والتطور الثقافى العام ، وإن اختلفت كلمتهم فى قيمة هذه الرسائل وما تحتويه من مادة علمية من حيث الدقة أو الطابع الإبداعى . وقد يمثل هذا الرأى المزدوج قول كراتشكوفسكى عن الرسائل وأصحابها كمؤرخ للفكر الجغرافى العربى : « .. فيما عدا القسم الخاص بالجغرافيا ، فإن المعطيات الجغرافية تتناثر فى بقية الرسائل وهى لا تخلو من أهمية فى بعض الأحيان رغما من أنها قليلا ما تتميز بالأصالة ... وفى الأعوام العشرة الأخيرة فقط ، عندما وضحت طبيعة علاقتهم بحركة الإسماعيلية أصبح فى حيز الإمكان فهم أفكارهم ، داخل الإطار العام للقرن العاشر . أما بالنسبة للأدب الجغرافى - وذلك فى مفهومه المستعمل فى هذا الكتاب - فإن هذه الرسائل ترتبط به ارتباطا غير مباشر ، لكنها لا تخلو من أهمية فى تحديد مدى الاهتمام بالجغرافيا ؛ لأنها تمثل أثرا ممتازا فى نطاق التاريخ الثقافى لذلك العصر»[٥٠] .

٢ - أشرنا فيما سبق إلى موقف إخوان الصفا من الفلسفة ، والفلسفة اليونانية بوجه خاص والأفلاطونية المحدثة بوجه أخص ، ويبدو أن هذا الموقف ألقى بظلاله على بحوثهم الجغرافية ومصادرها ، وربما جاز لنا أن نعود مرة أخرى إلى كراتشكوفسكى : « أحاطت رسائلهم بجميع المعارف التى كانت سائدة فى ذلك العصر .. مع جنوح إلى المذهب اليونانى ، واختيار المادة عندهم يتخذ طابعا انتقائيا ملحوظا ، فالأساس عندهم هو الثقافة اليونانية والعلم اليونانى ، ولكن يبصر لديهم بوضوح أيضا نفوذ الثنائية الغنوصية .. وفى صلتهم بالعلم اليونانى .. فإن أرسطو كان يأتى عندهم فى المرتبة الثانية عند مقارنته بهرمس وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس.. »[٥١] ،وقد مر بنا فيما نقلناه من نصوصهم إحالتهم قارىء الرسائل على بطليموس ، على أنه من المعروف أن لنظرية الفيض الأفلاطونية أثراً بالغا فى العقائد الإسماعيلية سبق الإلماح إليه .

٣ - أيا كانت قيمة الرسائل من الناحيتين العلمية والفلسفية فقد مارست تأثيرا واضحا على معاصريهم وعلى العصور التالية ، وفى الفصل الهام الذى كتبه ديبور عن الفلسفة والعلم عند إخوان الصفا أثبت تأثيرهم حتى على خصومهم من أهل السنة [٥٢] ؛ وهذا ما يشاركه فيه باحثون آخرون[٥٣] . ويبدو أن شهرة الجماعة قد تجاوزت « بسرعة فائقة حدود موطنهم .. بل حدود الأدب العربى بمعناه الضيق . فمنذ نهاية القرن العاشر نشر تعاليمهم بالأندلس مسلمة المجريطى (إقليدس الأندلس) . وفى القرن الثالث عشر وقع تحت تأثيرهم الكاتب السريانى يعقوب بن ساويروس .. وفى القرن الرابع عشر نقلت رسائلهم إلى الفارسية فى دولة تيمور . كما أن أجزاء متفرقة منها وجدت طريقها إلى أوربا الوسيطة . ويرجع الفضل فى تعريف الدوائر العلمية المعاصرة بهم إلى (ديتريتشى) الذى أفرد لهم أكثر من عشرين بحثا فى ترجمة وتحليل معظم الرسائل ...[٥٤] وينوه بعض الباحثين بأثرهم على بعض البحوث الجغرافية عن المسلمين ، كالجغرافيا الحيوية والجغرافيا الطبيعية بالإضافة إلى الجغرافيا الإقليمية[٥٥] .

٤ - وأخيرا ، فإن جغرافيا إخوان الصفا لا تخلو من مسحة مذهبية ظاهرة ، سواء فى التفسيرات غيرّ العلمية لأثر الكواكب التى ربما ترجع إلى نظرية الفيض الأفلاطونية أو ما يشبهها من عقائد إسماعيلية [٥٦] ، أوفى الطابع الدعوى الذى يتخلل الرسائل وتوظف من أجله المعارف العلمية[٥٧] ، أو فى عنايتهم بما يدخل فى باب الجغرافيا الثقافية أو الدينية كالاختلافات الواقعة بين الأديان المختلفة ، وبين طوائف المسلمين «ومنها اختلاف فى ألفاظ التنزيل كالذى بين القراء ، ومنها اختلاف فى المعانى كالذى بين المفسرين ، ومنها اختلاف فى أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية كالذى بين المقلدين [= أهل السنة] والمستبصرين [=الإسماعيلية] ، فيها اختلاف فى الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذى بين الشيعة ، ومنها اختلاف فى أحكام الشريعة وسنن الدين كالذى بين الفقهاء..»[٥٨] وهو تقسيم جيد لهذه الأوضاع فى عصرهم بصرف النظر فى تطبيقه ، وقد نجد محاولة شبيهة بذلك بل أكثر تفصيلا عند المقدسى[٥٩] المعاصر لكتاب «الرسائل» ، وتلك ناحية هامة نحن فى أمس الحاجة إليها فى دراسة أحوالنا العقلية مع تحديثها حينا بعد حين .

لكننى إن كنت قد بلغت بعضا مما حددته من أهداف فى مطلع هذا البحث فإنى أعترف بأنى لم أحقق مطمحا شخصيا كان ضمن دوافعى إلى القيام به وهو معرفة «الجزر الاثناعشر» التى قسم الإسماعيلية العالم إليها فى تنظيماتهم لمؤسسة الدعوة التى فاقت تنظيم أقوى الدول المعاصرة لشئون دعايتها ، كما يقرر أحد أكبر الخبراء فى الموضوع ، وهو المرحوم الدكتور محمد كامل حسين ، الذى قال: «تحديد الجزائر لم يزل سراً لم يستطع الباحثون الوصول إليه»[٦٠] ، وذكر أن محاولة إيفانوف فى هذا الصدد لم تنته إلى شىء محدد[٦١]. وربما كان فى ذلك بعض العزاء لى شخصيا .

وآخر دعوانا - على كل حال - أن الحمد لله رب العالمين .

حسن الشافعى

عضو المجمع

المراجع

١- محمد غلاب : إخوان الصفا ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ٩

٢ - محمد محمود محمدين : التراث الجغرافى الإسلامى ، ط ثانية ، الرياض ١٤٠٤ هـ ، ٢٧٠ - ٢٧١ .

٣ - محمد غلاب (مرجع سابق) ص ١٢.

٤ - جبور عبد النور : إخوان الصفا ، دار المعارف بالقاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٦.

٥ - أجناس جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين ، دار الكاتب المصرى بالقاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٢١٣ .

٦ - ديبور ت . ج : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ . ص ١١٣ .

٧ - كراتشكوفسكى أ . ى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ١٩٥٧ ، ٢٢٦/١

٨ - إخوان الصفا : الرسالة الجامعية ، ط بيروت ، ١٩٥٧ ، ٤١ - ٤٩ ، ٢٠١ - ٢٢٠ .

٩ - عارف تامر . حقيقة إخوان الصفا وخلان الوفا ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ط أولى ، ص ٦ وما بعدها .

١٠ - ديبور ت . ج : مرجع سابق .

١١ - هو الدكتور محمد غلاب : انظر كتاب (إخوان الصفا) ، ص ٤ .

١٢ - مدكور - إبراهيم بيومى : فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، الحلبى بالقاهرة ، ١٩٤٧ ، ٩٥/١ ، وانظر أيضا : حسن الشافعى : كتاب المبين للآمدى ، وهبه بالقاهرة ١٩٨٣ م ، ص ٣١ .

١٣ - رسائل إخوان الصفا ، دار صادر بيروت بدون تاريخ ، ١١/١ .

١٤ - السابق : ١٥٧/١ وقارن ٣٦/٤.

١٥ - السابق ٦/١ .

١٦ - انظر كراتشكوفسكى (مرجع سابق) ، ص ٢٢٧ .

١٧ - محمد محمود محمدين (مرجع سابق) ص ١٥ ، وقارن ص ١٣ .

١٨ - الرسائل ١/ ١٥٨

١٩ - السابق ١٥٨/١ - ١٥٩ .

٢٠ - السابق ١٦٣ .

٢١ - السابق ١٦٢ .

٢٢ - السابق ١٦٣ .

٢٣ - السابق ١٦٥ .

٢٤ - السابق ١٦٦ .

٢٥ - السابق ١٦٧ .

٢٦ - السابق ، وقارن ديبور (مرجع سابق) ٩٧ - ٩٨ .

٢٧ - انظر محمد محمود محمدين (مرجع سابق) ص ٢٧٠ .

٢٨ - السابق ٢٦٩ .

٢٩ - الرسائل ، ١٦٨/١ .

٣٠ - السابق .

٣١ - السابق ١٦٩ .

٣٢ - السابق ١٧٠ .

٣٣ - السابق ١٧٠ - ١٧١ .

٣٤ - السابق ١٧١ .

٣٥ - السابق ١٧١ - ١٧٢ .

٣٦ - السابق ١٨٠ .

٣٧ - السابق ١٨٢ .

٣٨ - ديبور (مرجع سابق) ص ٩٦ .

٣٩ - الرسائل ١١٤ .

٤٠ - السابق ١/ ١٢٠ - ١٥١ .

٤١ - انظر الرسائل ٦٧/٢ - ٧٢ .

٤٢ - السابق ٧٣/٢ - ٧٨ .

٤٣ - السابق ٧٩ - ٨٦ .

٤٤ - السابق ٨٢ - ٨٣ .

٤٥ - السابق ١٧٨ - ١٨٣ .

٤٦ - السابق ١٨٤ - ١٨٦ .

٤٧ - السابق ١٨٦ - ١٩٧ .

٤٨ - السابق ١٩٨ - ٢٠٣ .

٤٩ - كراتشكوڤسكى (مرجع سابق) ٢٢٨ - ٢٢٩ من القسم الأول .

٥٠ - السابق ٢٢٧/١ وقارن بالرسائل ١٥٧/١ ، ١٧١ .

٥١ - ديبور (مرجع سابق) ١١٢-١١٣.

٥٢ - كراتشكوڤسكى ٢٢٨/١ ، محمدين (مرجع سابق) ٢٧١ - ٢٧٤ ، ضياء الدين علوى س . م : الجغرافيا العربية ، ترجمة يوسف الغنيم وطه جاد ، ط الكويت ، ١٩٨٠، ص ٢٠٤ .

٥٣ - كراتشكوفسكى ١/ ٢٢٨ .

٥٤ - محمدين (مرجع سابق) ٢٧٢ - ٢٧٥ ، علوى : الجغرافيا العربية (مرجع سابق) ٢٠٤ .

٥٥ - محمدين (مرجع سابق) ٣٧٨ .

٥٦ - راجع ما سبق فى هذا البحث ، وانظر الرسائل ١/ ١٨٠ - ١٨٢ .

٥٧ - الرسائل ٣/٤٨٨ .

٥٨ - محمدين (مرجع سابق) ١٣٤ .

٥٩ - محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٩ م ، ص ١٢٣ .

٦٠ - السابق .